لو أبيت لأكلني !!

١

كان أبو الحكم بن هشام ، مرهوب الجانب ، عظيم المكانة ، سامى المنزلة ، رفيع القدر بين قومه من قريش ، يعظمونه إذا رأوه ، وله فيهم كلمة مسموعة ، ورأى مطاع .

وكان أكثرهم إيذاء للرسول الجديد ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأشدهم إعناتاً له ، وإثقالاً عليه ، وسخرية به ، وكأنما يجد لذة فى هذا الإيذاء الشديد ، ومتعة فى التنكيل به ، والتحرش بمن اتبعه من المؤمنين ...

وكانت قريش عن بكرة أبيها ، تعرف هـذا ولا تنكره عليه ، ولا توقفه عند حده من الطغيان الجائر ، والاعتداء الآثم ، والظلم المبين ، بل تشجعه وتعاونه ، وتشترك معه فى العدوان ، وتطلب منه المزيد ، والافتنان فى سبيل الإرهاق ، والإيذاء والتعذيب ... !!

كان يؤلمهم ويضنيهم ما يهتف به عليه الصلاة والسلام ، من توحيد الله ، والاعتراف له بالربوبية دون سواه ؛ وأن هذه الآلهة المتعددة شرك وضلال مبين ، وإنكار للعقل الإنسانى ، وحجر على التفكير البشرى ، الذى

المتعددة ، والأصنام المتباينة ، والأوثان المختلفة ، التى إن دلت فلا تدل إلا على الجهل الفاضح ، الذى يرين على الأذهان والعقول ، و يطبع على الأفئدة والصدور ، ويحجبها عن الخير الواضح ، والطريق اللاحب ، والصراط المستقيم ! .

و يل لهذه الإنسانية المعذبة ، التى لا ترقى إلى الخير ، ولا تهدف إلى ما يفيدها فى الدنيا والآخرة ؛ إلا بعد أن يغلب عليها الشر الماحق ، و يستبد بها الظلم الصارخ ، فتظل تائهة حائرة ، شريدة ضالة ، حتى يؤذن لها أن تدرك ما فى الدين من خير وهدى وصلاح ! ...

وكان صلوات الله وسلامه عليه جالساً ذات يوم ؛ وجماعة من قريش بينهم أبوجهل بن هشام، يجلسون قريباً منه ، و يرشقونه من حين إلى حين بالألفاظ الجارحة ، كأنها السهام المارقة المريشة تصل إليه ، فلا تثنيه عن عزمه ، بل تزيده استمساكا بالحق ، واعتزازاً بالعقيدة ، وتفانياً فى الدعوة وانتصاراً للدين ! .

غير أن بعضهم لم يكتف باللفظ الجارح ؛ بل أخذ يقذفه بالحصى ، إمعاناً فى السخرية ، وتفنناً فى الإيذاء ، وتندراً بالعقيدة الجديدة ، والدين الجديد .

وما أقسى هذا على نفس الرسول الكريم ، وبخاصة وأن هؤلاء المشركين الكافرين ، ليس لهم من الشجاعة والقوة ، مايجابهون به الحق ، أو يقاومون به العقيدة السامية ، إلا حيث يجتمعون ، ويشعرون بالقوة الغامرة ، والشجاعة الدافقة ، وتأخذهم العزة بالإثم ، فتغلى مراجلهم ،

وتشتعل نارهم ، و يمعنون فى الزور والبهتان ، لا ينهاهم دين ، ولا يثنيهم وازع ، ولا يردعهم ضمير ! .

أما حيث يكون كل منهم فريداً وحيداً ، فلا يكاد يعلن شيئاً من هذه السخرية ! أو لوناً من ألوان الاستهزاء ، أو يظهر ضرباً من ضروب العداوة ، لأنه مهما قوى، فحجة الدين الإسلامى أقوى منه، ومهما بلغت به الشجاعة ، فإنه يتضاءل أمام الحق الغالب .

أما حين يجتمع بغيره ؛ فكأنما الشيطان ينفخ فى أوداجه ، و يمشى فى عروقه ، و يصرخ فى أذنيه ، فساداً وكبراً ، وضلالا مبينا .

٢

و بينا هم على هذه الحال ، أقبل رجل من قبيلة أراش ، إلى مكة ، ومعه إبل يعرضها للبيع ؛ و يرغب الناس فيها .

وأقبل المشترون من كل حدب وصوب ، وقال كل واحد كلمته ، ولكن أبا جهل بن هشام ابتاع هذه الإبل كلها ؛ بثمن مرتفع .

فرح الأراشى بهذه الصفقة ، ورأى أنه ربح فيها ربحاً لا بأس به ، وأن الثمن سيأخذه عما قريب ، فأبو الحكم رجل من أكابر قريش . ولا يمكن بحال من الأحوال أن يمارى فى الحق ، أو ينتقص منه شيئاً وعما قريب حينما ينتهى الأجل المضروب، والمدة المحدودة ، سيأخذ حقه كاملا غير منقوص ... و إنه لشرف أن يكون أبو الحكم مديناً له ...

وإنه لشرف أن يعامل أبا الحكم ، أحد رءوس قريش السامية المكانة ، والرفيعة المنزلة ، والتى لها بين العالمين ذكر وشهرة وصيت ... !!.

ولم يكن أبو جهل حينما رفع الثمن وأخذ الإبل ؛ بالرجل الشريف النفس ، الذى ينوى الخير ، ويقصد السداد ، ولكنه كان منتوياً أن يماطل فى الحق ، وأن يطيل المدة إلى أبعد حد ، وأن ينكر هذا الثمن إذا وسعه الإنكار ...

وكان يعتقد أن أحداً لا يمكن بحال من الأحوال أن يُكرهه على دفع الثمن ؛ لأنه كبير القوم ، ومحال أن يقف أحد فى سبيل إرادته ورغباته ... بل على العكس سيساعده كل واحد ممن حوله على ما يريد ، إن حقاً وإن باطلا . وليس أدل على هذا من اتباعهم له بصدد هذا الدين الجديد ، فكلهم يقر بينهم وبين نفسه بصدق محمد ، وصدق رسالته ، ولكنهم حينما يجتمعون به ينكرون هذا ويكذبونه ، ويذيعون الشر والفساد ، ويقاومون هذه الفئة المسلمة القليلة ، التى يرون فيها الضعف والخور ، ويعتقدون أنها لن ترفع صوتاً بحق أمام باطلهم .

وعلى هذا وطّد العزم ، واستراح إلى ذلك الرأى غيرَ آبهٍ بشىء .

٣

وأقبل الأراشى يطلب حقه من أبى جهل ، ولكنه ماطله ، وراوغه ، وبدا فى حديثه الطمع والأنانية .

وشعر الأراشى بأنه وحيد غريب ، وأنه لو أغلظ على أبى جهل لما نال منه حقه ، ولا حصل على أثمان إبله ، فماذا يفعل ؟! .

لقد شعر بالوحدة والانفراد، وأنه لو كان فى قبيلته لأمكنه أن يخاطب أبا جهل بالشدة ، ويطلب منه حقه ؛ بل ويُكرهه على أدائه ، ويرغمه على دفع أثمان ما ابتاع منه .

عليه أن يلين معه إذن حتى يحصل على حقه ، وهـذا هو الطريق الوحيد ، وإلا فسيضيع عليه هذا الحق .

وعبثاً حاول أن يقنع أبا جهل بوجهة نظره .. لقد كاد يقولها أبو جهل علانية ، وكاد ينكر حقه إنكاراً ، ولـكنه أنف أن يقولها ، فمطل ، ومطل ، واستمرأ ذلك المطل ...

ولما يشأ الأراشى أن يضيع الوقت عبثاً لا طائل تحته ، ولا خير يرتجى منه ، ففكر فى حيلة تنقذه من هذه الورطة ، وأخيراً اعتزم أمرا .

هو يعتقد أن الأمر الذى اعتزمه فيه جرأة أكثر مما يجب ، وأنه مجازفة ، قد لا يصل إلى شىء من حقه من ورائها ، وربما أضاعت عليه حقه كله ، ولـكنه اعتقد أيضاً أنها إذا نجحت فسيحصل على حقه كله فى أسرع وقت ، وخير له ألف مرة ومرة أن يعلنها ثورة على هذا الطاغية تهدم كبرياءه ، وتحارب غروره ، وتكشف أمره للناس ، وتوقفهم على دخيلة نفسه الآثمة ، وتخرق ذلك الطبل الأجوف ؛ الذى ليس له إلا

ومضى الرجل إلى حيث يجتمع القوم ، ويأخذون مجلسهم دائما ، يتحادثون ويتناقشون ، يشملهم جميعاً الفرح والمرح ، ويرشقون محمداً بين حين وآخر بما تسوّله لهم نفوسهم دون خوف من الله ، ولا استماع لصوت الضمير !! .

٤

وهناك بجانب المسجد الحرام ؛ ارتفع صوت ناقم ثائر ؛ يطالب بحقه ويستصرخ القوم ويستغيث بهم :

— يا معشر قريش !! .

— ماذا تريد يا رجل ؟! .

— من يُؤْدينى على أبى الحكم ؛ ويعيننى عليه حتى آخذ حقى منه ؟ .

— أتريد أبا الحكم بن هشام ؟ .

— أجل إنه هو ... وإنى رجل غريب ، ابن سبيل وقد غلبنى على حقى .

وصمت الرجل ، بعد ما أعلن الحرب ، وعرض الفضيحة ، وانتظر حتى يسمع الحكم الذى يرجو أن يكون إنصافاً له من هذا الطاغية ، الذى لم يخش ربًّا ، ولم يرع للحق حرمة .

وتلاقت أنظار المشركين ، ورأوا فى هذا مادة للتندر ، والسخرية بمحمد ، والاستهزاء به ، فقالوا للرجل فى عبارات ساخرة تهكمية :

— أترى ذلك الجالس هناك ؟.

وأشاروا له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الرجل :

— نعم ...

— اذهب إليه ، فإنه يؤديك عليه ، و يعينك على أخذ حقك منه .

ومضى الأراشى إلى رسول الله ؛ وانطلقت ضحكاتهم ترنّ فى الفضاء ؛ لأنهم يعلمون ما بين محمد و بين أبى جهل ، من العداوة والبغضاء ، وأنه لا يجسر أن يخاطبه فى شىء من هذا القبيل ؛ و إلا اشتد إيذاؤه له ، وسخريته به .

٥

ورأى الأراشى نوراً يتلألأ فوق جبين هذا الرجل ؛ واطمأن إلى هذه الروح الرقراقة السامية ، وأحسّ بانشراح الصدر قبل أن يخاطبه بكلمة واحدة ؛ فعلم أن القوم حقيقة دلوه على خيرهم ، وأقدرهم على مساعدته و إعانته على أبى جهل الطاغية الظلوم .

قال له فى أدب و إجلال :

— ياعبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام ، قد غلبنى على حق لى قِبَله ، وأنا غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يُؤْدينى عليه ، و يعيننى على أخذ حقى منه ، فأشاروا إليك ؛ فخذ لى حقى منه ، يرحمك الله .

وفهم الرسول صلى الله عليه وسلم كل شىء ؛ علم أن القوم أمعنوا فى السخرية والتنكيل به ، وأنهم يعتبرونه ضعيفا قليل حيلة ، وأن أبا جهل

ليشتد ما بينهما من عداوة . وأنهم يعتقدون ، أن أبا جهل قوى غالب ؛ وأن أحداً لا يمكنه أن يقف فى سبيله مهما كان .

فهم ذلك ، ولكنه علم أن هذا الرجل مظلوم مثله سواء بسواء ، وأنه فريسة أبى الحكم ، وأنه غريب ضعيف ، يتحرق إلى الناصر والمعين ، ويناشد أهل المروءة والعزة والكرامة ، وأن أحداً من هؤلاء لا يمكن أن يعينه على أبى جهل ، كائناً ما كان الأمر ، فأبو جهل كبيرهم ، وقائدهم إلى الشر والفساد .. وأبو جهل رسول إبليس وكبير جنده وأعوانه .. فكيف إذن ينصر هذا الرجل ؟ .

وفكر الرسول الكريم فى الأمر ، ولكنه كعادته دائماً شجاع قوى الإرادة ، لا يخشى إلا الله ، ولا يخاف من مخلوق بالغاً ما بلغ ، لقد وقف أمام العالم كله ، يسفه عقائده ، ويحطم أصنامه ، ولم يجبن فى وقت ما ، فكيف به ينكص عن مناصرة هذا المظلوم ، الذى التجأ إليه ، ولاذ بحماه ؟ ! .

سيبذل أقصى ما يمكنه بذله ، سيذهب إلى أبى جهل فى بيته ، سيدخل عليه وكره ، ويهاجمه فى عرينه الذى يربض فيه ، كما يربض الوحش المفترس ، لا يخشى شيئاً ولا يخاف من إنسان ...

حقاً إنه ضعيف ، ولكنه قوى بالله ، وإنهم أقوياء ، ولكنهم ضعفاء بباطلهم المتخاذل ، وإثمهم المبين .

قال للرجل فى عزم وقوة :

— سَأَنْطَلِقُ إِلَيْهِ !! .

٦

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأراشى ؛ ومرّ بالقوم ، أتباع أبى جهل وأعوانه ، وأحبابه وأنصاره .

لقد أخذ عليهم الدهش والعجب كل سبيل ، فما كانوا ينتظرون أن يروا محمداً يطيع الرجل ؛ ويأخذ بناصره ، ويذهب معه إلى أبى جهل .

وفى أى مكان ، فى بيته .. فى عرينه .. يهاجمه فى عرينه ؟ ! هذا كثير ، إنها لجرأة ، وإنها لمغامرة ، وإن محمداً لن ينجو من شر أبى جهل هذه المرة ، وإن نجا من شره قبل ذلك مرات ومرات ... إن أبا جهل ستأخذه العزة بالإثم ، ويبطش بمحمد ؛ لأنه يتدخل فى شئونه الخاصة ، ويجرؤ على ما لم يجرؤ عليه إنسان ما .

وقال فريق منهم :

— إن محمداً شجاع .

وقال فريق آخر :

— إنه مجنون .. إنه ذاهب إلى حتفه .

ولكنهم جميعاً شعروا بأنهم السبب فى إثارة عواطفه ، وتحريك عوامل الرحمة والشفقة من نفسه ، حينما قالوا للأراشى ما قالوا ، وإذا أصابه مكروه ، فإنما هم السبب فى ذلك دون ريبة ولا شك .

منهم ، عربى قرشى ، وهو أمين صادق . بيد أن عداوته لأصنامهم ، ونيله من عقائدهم حوّل هذا الشعور سريعاً إلى نقمة وكراهية ، وسخرية واستهزاء ، فقالوا لرجل منهم :

— اتبعه ، انظر ماذا يصنع؟

٧

انطلق رسول الله صلى الله عليـــه وسلم إلى بيت أبى جهل ، ومعه الأراشى ، وخلفهما القرشى يتبعهما من بعيد ، يراهما ولا يريانه . وضرب على أبى جهل بابه ، فارتفع الصوت جافاً غليظا :

— من الطارق ؟ .

— مُحَمَّدٌ فاخْرُجْ إلَىَّ .

وكأنمـا أذهبت المفاجأة عقل أبى جهل ، وأطارت نفسه شعاعاً ، وهدمت أعصابه ، فخرج مضطربا ملتاعا ، حائل اللون ، مكفهر الوجه ؛ لا يكاد يتماسك من شدة الخوف والرهبة والاضطراب .. محمد .. ولمـاذا جاءنى فى هـــذا الوقت ؟ ! وما الداعى إلى هذه الزيارة التى لن تكون خيراً أبدا ؟ .

وظل صامتا لايقوى على النطق ، وكأنما أرتج عليه فحار ماذا يقول ؟.

وقال الرسول الـكريم فى عزم وإباء وقوة :

— أعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ .

ولم يجد أبو جهل بدًّا من الرضوخ لهذا الأمر النافذ ، الذى لا يقبل التأجيل ، فقال على الفور فى خوف ووجل ، وحيرة واضطراب :

— نعم ؛ لا تبرح حتى أعطيه الذى له .

ودخل داره ، وغاب قليلا ، ثم خرج إليه بحق الرجل ، فدفعه إليه ، وهو لا يزال خائفا مضطربا .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حمد الله سبحانه وتعالى على هذا النصر المبين . وقال للأراشى :

— اُلْحَقْ بِشَأْنِكَ .

ومضى كل إلى سبيله .

٨

ولم يشأ الأراشى أن يمضى هكذا دون أن يشكر هؤلاء الذين دلوه على الرجل العظيم الذى أعانه على أبى جهل الطاغية وأخذ له حقه منه . . ففى طبيعة العرب وفاء وعرفان للجميل ، واعتراف بالحق . .

فأقبل حتى وقف على ذلك المجلس ، وكان جميع من فيه ينتظرون النتيجة ، وقد أعمل كل منهم خياله فى الموضوع ، وجسم الحادثة تجسيما خرج بها عن الحق ، وباعد بينها و بين الواقع مسافات بعيدة . .

فلم يكن واحد منهم ليتصور أن محمداً سيأخذ الحق من أبى جهل

أن أبا جهل سيؤذى محمداً ، ويسخر منه ، وسيرى الرجل هذا الإيذاء ، وتلك الإهانة ، فيقع مالا تحمد عقباه . .

وما كادوا يرون الأراشى ، وفى عينيه فرحة غامرة ، وسرور عظيم ، حتى أُخذوا جميعا ، وتملكهم العجب ، وسيطرت عليهم الدهشة ، وغلبتهم الحيرة والذهول . .

قال الأراشى فى لهجة معبرة تفيض بالشكر والامتنان :

— جزاه الله خيرا ، فقد أخذ لى حقى . .

أُخذ له حقه ! ! . . أُخذ له حقه ! !

ما هذا الكلام ؟ !

وتتابعت النظرات متلاشية فى سرعة ودهشة وحيرة ، فما كانوا ينتظرون هذه النتيجة ، وكيف حدث هذا ؟ !

ماذا جرى لأبى جهل ؟ كيف استمع إلى محمد وأجاب طلبه ، وهم يعلمون ما بينهما من عداوة و بغضاء ؟ !

إن هذا لشيء عجيب . . إن الرجل لابد وأن يكون كاذبا . . إنه قد انهزم انهزاما خشى أن يعلنه أمامهم؛ لئلا يسخروا منه ومن محمد ، وقد يئس بطبيعة الحال من أخذ ماله ، فقال هذا الكلام . .

ولكن ما الداعى لأن يقول هذا ، وفى مكنته أن يفضح أبا جهل على الأقل ، و يعلنها عليه ثورة ماحقة ، إن لم يكن نتيجتها نيله حقه كاملا ، فيكفيه تأليب الناس عليه . وفضيحته بينهم ، فلا يعامله أحد بعد ذلك ؟ ! .

إن الأمر أخطر من هذا كله ، إنه غير ما يتصورون ، ولا شك أنهم سيعلمون جلية الأمر عند مايقبل صاحبهم ، اعتقادا أن النتيجة لن تكون كما قال الرجل الأراشى بحال من الأحوال ، وإلا فمعنى هذا أن أبا جهل أصبح خائفا من محمد ، ولن يقاومه بعد ذلك أبدا ، بل سيكون من أتباعه وأنصاره . . ومعنى ذلك أن جميع الخطط التى وضعوها لمقاومته ، ومقاومة دينه الذى جاء به ، ستحبط على طول الخط ، وامتداد الطريق . . ! !

ويلك يا أبا جهل إن كان ما يقوله الرجل حقا ، لن تقوم لك قائمة بعد ذلك ، ولن يصيخ لقولك إنسان منا بعد هذا أبداً . .

٩

وما كاد صاحبهم الذى انطلق فى أثر محمد يلوح من بعيد ، حتى اتجهت إليه الأنظار ، وقالوا له بلهفة وسرعة :

— ويحك ! ! ماذا رأيت ؟ !

قال فى حزن بالغ ، وتأثر كبير :

— عجبا من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه ، فخرج إليه ، وما معه روحه . . فقال له : أعط هـذا حقه ، فقال : نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه . .

ووجم القوم ، وملأهم الغيظ والهم ، وعلموا أن الرجل كان صادقا حينما قال ذلك . ودعا لمحمد بالرحمة وخير الجزاء . .

فى القبائل حينما يقص قصته ، وسينالهم كثير من اللوم والتعنيف ، وستكون سيرتهم مضغة فى الأفواه ، يلوكها هذا و يلوكها ذاك ، و يصبحون عرضة للقيل والقال . .

لا بد أن يرسلوا إلى أبى جهل من يأتى به ، و يخاطبونه فى هذا الأمر فلا يجدر بهم الصمت ، ولا يليق بهم السكوت عليه .

بأى عذر سيعتذر ؟ أيقول : أردت مجاملة الرجل و إعطاءه حقه ، إذن فلماذا مطله ، ولم يعطه الحق فى وقته ؟ ولماذا لم يعطه له إلا أمام محمد ؟ إذن فهو يرعى جانب محمد إلى حد كبير ، وهو يمالئه و يتواطأ معه ، و يتظاهر أمامهم بحربه و إيذائه . .

إنهم سيعرضون الأمر عليه ، ويدعونه لنفسه يفرض الجزاء كما يرى ويحب ، و يوقع على نفسه العقوبة التى يرتضيها . ولن يتدخل أحد فى ذلك أبدا ، ليكون هذا أدعى إلى النكاية ، وأمعن فى اللوم والتأنيب . .

وكادوا يطيرون فرحا وسرورا ، حينما رأوا أبا جهل يقبل عليهم ، مكفهر الوجه ، مضطرب الفؤاد . .

١٠

– ويلك ! مالك ! ! والله ما رأينا مثل ما صنعت قط . .

وعجب أبوجهل كيف يُجابه بهذا القول العنيف ، وعلى هذه الصورة النكراء ، فكاد يثور و يهيج ، لولا أنه تمالك نفسه ، وعلم أنه مخطىء دون ريب فى نظرهم ؛ لأنهم لا يعرفون الحقيقة ، ولم يدركوا الواقع كما هو . .

فقال فى صوت هادئ ، كله الأسى والحزن :

— ويحكم ! ! والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت منه رعبا . .

— ملئتَ منه رعبا ؟ ما عهدناك جبانا ، ولا خوارا ، ولا رعديدا فكيف تخشاه ، وبخاصة وقد علمت أنه هو الذى طالما سخرت منه وهزأت به ؟ !

— ليس لى دخل فى هذا ، فهو شعور طبيعى تملكنى بلا تفكير ولا تدبير ، وأخذ علىّ كل مسلك وطريق . .

— ثم ماذا ؟

— ثم خرجت إليه . .

— وماذا رأيتَ ؟ أرأيته يحمل سهاما وحرابا ؟ أم خناجر ومُدى وسيوفا ، أم معه الجيش اللجب والخيول المطهمة ، والفرسان الذين لا قِبَل لك بهم ، ولا قدرة لك عليهم ؟ !

— دعوا هذا ، وكفى سخرية ، فلو رأيتم مارأيت لما كان واحد منكم على قيد الحياة ، ينشق نسيمها ، ويتمتع بما فيها من نعم وخيور . . ! !

— إذن ماذا رأيتَ ؟ . .

— رأيتُ فوق رأسه فحلا من الإبل ، ما رأيت مثل هامته ، ولا عنقه ، ولا أنيابه لفحل قط . .

ووضع نفسه هذا الوضع ، فأحس بالقشعريرة تتملكه وتسيطر عليه ، وعلم أنه لا يتوانى عن فعل ما يطلب منه كائنا ما كان ..

وقال قائل فى لهفة !

— ثم ماذا ؟

— ثم خيل إلىّ ، بل تيقنت تمام اليقين أننى مغلوب على أمرى ، وأنه لا بد وأن أدفع للرجل ثمن إبله ، وأعطيه حقه بلا مطل . .

وصمَت قليلا ، ثم قال :

— والله لو أبيت لأكلنى . . ! !